الدار البيضاء
مدينة تختصر سحر المغرب

إنها مدينة تضج بالصخب الذي يجعل زائرها خاضعًا لديناميكية فريدة من نوعها، تدهشه بهندستها المعمارية الفريدة التي تطغى على شوارعها و أحيائها حيث الأبراج الشاهقة المغلّفة بالزجاج ذات النمط الأميركي العصري تحدق إليها فيللات متناثرة بين أقدامها جاءت هندستها على النمط الأوروبي، و كأنه تحدٍ صامت بين حضارتين على مدينة تنبسط غرب المملكة المغربية و على المحيط الأطلسي.

و لعلّ فيلم «كازابلانكا» للمخرج مايكل كورتيز و الذي قام ببطولته همفري بوغارت و أنغريد برغمان، يوم كانت شاشة هوليوود أربعينات القرن الماضي بلونيها الأبيض و الأسود، يعكس سحر مدينة لعبت تيارات سياسية أدواراً في تشكيل معالم مستقبلها.

فكانت شاهداً على المشروع الفرنسي و المشروع الأميركي الاستعماريين و التيار التقدّمي المحلي.

و مهما كان الصراع التاريخي فإن كازابلانكا ما زالت حسناء مغربية تعبق بالسحر الأندلسي يعب من زرقة الأطلسي الذي ترتاح أمواجه على شاطئها اللؤلؤي فتذوب في جسد مدينة لا تملّ حكايات البحر و أسراره.

و اسم كازابلانكا أو الدار البيضاء حديث العهد، فحول الهضبة التي لا تزال تعرف باسم أنفا كانت في العصور الوسطى مدينة صغيرة بربرية تتواصل مع الأسبان و البرتغاليين من خلال مرفئها البحري الذي كان يضم أيضًا أسطولاً بحريًا صغيرًا للقراصنة الشرعيين.

إذ كان في إمكان هذا الأسطول مصادرة سفن العدو التجارية، مما جعل البرتغاليين يقررون تدمير المرفأ، فهاجموا المدينة عام 1468 و دمّروها و أخلوها من أهلها فأصبحت تشبه مدينة الأشباح مدة ثلاثة قرون.

وُلدت المدينة من رحم التاريخ مرة جديدة في القرن الثامن عشر خلال حكم السلطان محمد بن عبد الله، و غيّرت اسمها إلى الدار البيضاء.

بيد أن الأوروبيين لا يزالون ينادونها كازابلانكا .

و مهما يكن فهما اسمان لمعنى واحد.

في منتصف القرن التاسع عشر و مع تحوّل النقل البحري إلى السفن البخارية، شهدت المدينة حركة تجارية تجاه أوروبا بتصدير الحبوب و الصوف.

و في بدايات القرن العشرين شهدت المدينة ولادة ثالثة و أصبحت مقصد الاستثمارات الأوروبية، فانتعشت الحركة التجارية فيها.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

ساحة الأمم المتحدة

تعتبر ساحة الأمم المتحدة مهد دار البيضاء العصرية.

هنا، تحت أسوار المدينة العتيقة كان في بداية القرن العشرين سوق قديم أصبح قلب المدينة النابض، تتفرع منه شرايين الحركة التجارية.

ففي شارع الحرس الملكي تجتمع المصارف و وكالات السفر و تنتشر دور السينما و المطاعم و البوتيكات الراقية في بولفار محمد الخامس الذي يتفرع منه بولفار الأديب الفرنسي فيكتور هوغو.

حي حابوس: الحداثة و شغف التراث

عند جنوب الدار البيضاء و خلف القصر الملكي يقع حي حابوس الذي يعود تاريخ إنشائه إلى عام 1923 و كان يعرف بالمدينة الجديدة.

لم يكن الهدف من بنائه الفصل بين الأحياء المغربية و الأوروبية، و إنما بناء مدينة حديثة على الطراز المغربي التقليدي الذي يتميّز ببوابته و مساجده و شوارعه الصغيرة.

و قد صمم بناء هذا الحي المهندس الفرنسي ميشال إيكوشار الذي ساهم أيضاً في التخطيط المُدني لمدينتي بيروت و دمشق.

وعلى طول شوارع الحي و حول الساحات تصطف القناطر حيث توجد البازارات التي تعرض الأعمال الفخارية و النحاسية و الملابس التقليدية، إضافة إلى المكتبات.

كما يضم الحي «المحكمة»، و هو معلم أثري يتميّز بالقباب المزخرفة بالفسيفساء الأخضر و قد شيّد على نمط الهندسة المعمارية المغربية.

و يقع في مقابل «المحكمة مسجد محمد الخامس الذي تحيطه حديقة غنّاء تعكس شغف المغاربة بالطبيعة».

النسر العربي الدولية © ٢٠١١

أنفا حي يراقب أمجاده ببهاء

على هضبة تشرف على الدار البيضاء يقع حي أنفا الراقي الذي شهد التنافس الحاد بين الحضارتين الأوروبية و الأميركية.

فمع نزول الحلفاء في الدار البيضاء خلال الحرب العالمية الثانية عام 1942 ازدهرت حركة المدينة الاقتصادية، و تراجعت الهندسة المعمارية التقليدية أمام النمط الأميركي، فارتفعت ناطحات السحاب، و شُيدت بيوت البرجوازيين على نمط البيوت في كاليفورنيا.

يتميز الحي بحدائقه الغناء و شوارعه العريضة.

و يعتبر فندق أنفا من أشهر الفنادق، ففيه أقيم مؤتمر الدار البيضاء في كانون الثاني/ يناير 1943 و الذي أعلن خلاله تشرشل و روزفلت الانسحاب من النورماندي الفرنسية.

و منذ ذلك الوقت أصبح لأميركا دور في منطقة شمال أفريقيا.

المدينة العتيقة حنين يقف عند بوابة التاريخ

تعكس المدن العتيقة جزءاً أصيلاً في حضارتنا العربية، فهي الحنين الذي يسكن ذاكرتنا التاريخية ليأخذنا إلى عالم بسيط نحتاج إلى الهروب إليه بين الحين و الآخر من حاضر يصخب بتعقيدات لا تنتهي.

و المدينة العتيقة في الدار البيضاء نموذج مثالي لمن يريد خوض تجربة الهروب هذه.

الولوج إليها يكون عبر بوابة مراكش أولى الخطوات نحو السحر الأندلسي حيث تستقبلك بسطات متلاصقة فرشت عليها أجمل الأعمال الحرفية تنافسها روائح البهارت الحرّيفة التي يشتهر بها المغرب و تتراقص فوقها العباءات المغربية، مما يشعر المتجوّل بأنه وسط كرنفال تتيه فيه الحواس.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١